ـ الفَصْلُ الثَّانِى :

النَّقْدُ الأَدَبِىُّ فِى عَصْرِ صَدْرِ الإِسْلام

كان الشِّعر سلاحاً من أسلحة المعركة التى دارت رَحَاهَا بين الإسلام وخصومه بعد هجرة رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ وأصحابه إلى المدينة.

وقد تولَّى الرَّدَّ على شُعراء قُريش ثلاثةٌ من شُعراء الأنصار ؛ وهم : حسَّان بن ثابت ؛ وعبد الله بن رواحة ؛ وكعب بن مالك .

كان ثلاثتهم يُنَافِحُونَ عن المهاجرين والأنصار ؛ ويهجون كُفَّار قُريش ؛ ولكن هؤلاء كانوا يجزعون من شعر حسَّان ما لا يجزعون من شعر صاحبيه ؛ لأنَّ حسَّان كان يغمز أنسابهم وأحسابهم ؛ ولم يكن العرب فى الجاهليَّة يعتزُّون بشىءٍ كما يعتزُّون بالأنساب والأحساب ؛ فلما دخل كُفَّار قريش فى الإسلام كانوا أشدَّ جزعاً من شعر عبد الله بن رواحة ؛ لأنه كان يُعيِّرهم بالكُفر .

وهنا نلمس أثر الإسلام فى تبديل القيم التى تقوم عليها معانى الشِّعر ؛ فقد أصبح العرب حين أسلموا يرون الكُفر مذمَّةً أمرَّ من قُعُود الحسب وَغُمُوض النَّسب ؛ ومعنى ذلك : أن الشعر أصبح فى نظر الجمهور الذى يستمع إليه مُرتبطاً بالدِّين والأخلاق ؛ وقد وضَّحَ التنزيل الحكيم الفرق بين هذين النوعين بجلاءٍ تامٍّ ؛ وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون ۞ وَأَنَّهُم

يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُون ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ؛ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ۞ ﴾ . (١)[٣] .

....

يُروى أن عُمر بن الخطَّاب سأل عبد الله بن عبَّاس - رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا - : هل تروى لشاعر الشُّعراء؟ ؛ فقال ابن عبَّاس : ومن هو يا أمير المُؤمنين ؟! ؛ قال عُمر : ابن أبى سلمى ؛ قال ابن عبَّاس : وبِمَ صار كذلك ؟! ؛ قال عُمر : لأنه لا يتبع حُوشِىَ الكلام ؛ ولا يُعاظل فى المنطق ؛ ولا يمتدح الرجل إلاَّ بما يكون فيه .

فعُمر - رَضِىَ اللهُ عَنْهُ - قدَّمَ زُهيراً على سائر الشُّعراء ؛ لسببين :

أحدهما يرجع إلى المعانى ؛ والآخر إلى الصياغة .

فأما السبب الذى يرجع إلى المعانى : فهو أنه لا ينسب إلى ممدوحه فضائل ليست فيه ؛ فهو يتحرَّى الصدق فى مدحه ؛ على خلاف مُعظم الشُّعراء . وبهذا نرى صُورةً منَ النَّقْدِ الأخلاقىِّ فى نقد الشعر .

وأما السبب الذى يرجع إلى الصياغة ؛ فوضُوح ألفاظه وتراكيبه ؛ وهذا السبب وثيق الصلة بالسبب الأول ؛ فالشاعر الصادق الذى لا يتكلف فى معانيه ؛ حَرِىٌّ ألا يتكلَّف كذلك فى ألفاظه ؛ والشعر الذى يؤدى رسالةً تعليميَّةً ؛ حَرِىٌّ أن يكون واضحاً كى يفهمه النَّاس .

---

(١) - [سُورَةُ الشُّعراء : ٢٢٤-٢٢٧] .

ونستطيع أن نقول أيضاً: كانَ عُمر ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ـ يرى أنَّهُ لابُدَّ من توافرِ عُنصُرينِ أساسينِ فى الشَّاعِرِ المُجِيد؛ وهُما:

١ ـ الصِّدْقُ الفنىُّ.

٢ ـ قُوَّةُ الأَداءِ التَّعبيرىِّ: وهى تكمُنُ فى جزالةِ الألفاظِ من جهةٍ؛ وفى سُهُولتها ويُسْرِها من جهةٍ أُخرى.

وكما كان عُمر ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ـ يستحسن شعر زُهير؛ كان يستحسن هذا البيت لِسُحَيْم:

عُمَيْرَةَ وَدِّع إِن تَجَهَّزْتَ غَازِيَا
كَفَى الشَّيبُ وَالإِسْلامُ لِلمَرْءِ نَاهِيَا

والمعنى الدينىُّ الأخلاقىُّ أكثر ظُهُوراً فى هذا البيت؛ مع سُهولةٍ واقتصادٍ فى الأُسْلُوب.

وقد تحدَّثَ عُمر مرَّةً معَ وفد غطفان؛ فقال: أَىُّ شُعرائكم الذى يقُول:

أَتَيْتُكَ عَارِياً خُلْقَاً ثِيَابِى
عَلَى خَوْفٍ تُظَنُّ بِىَ الظُّنُونُ !!

قَالُوا: النَّابغة.

قَال: فأىُّ شُعرائكم الذى يقُول:

حَلَفْتُ فَلَم أَتْرُك لِنَفْسِكَ رِيبَةً
وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلمَرْءِ مَذْهَبُ

قَالُوا: النَّابغة.

قَال : فأىُّ شُعرائكم الذى يقُول :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِى هُوَ مُدْرِكِى

وَإِن خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

قَالُوا : النَّابغة .

قَال : هَذَا أشعرُ شُعرائكم .

وها هُنا نجدُ سُؤالاً يفرضُ نفسه :

لماذا وصفَ عُمر ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ـ زُهيراً بأَنَّهُ أشعرُ الشُّعراء ؛ بينما وصف النَّابغة بأَنَّهُ أشعر شُعراء قبيلتهِ وحسب ؛ هذا مع كونِ النَّابغة أشدُّ إبداعاً وأقوى مُعجماً مع سلاسةِ وجمالِ الألفاظِ فى ذاتِ الوقت ؟!! .

الَّذِى ترجَّحَ عندى بعد التَّأَمُّلِ ؛ أَنَّ عُمر ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ـ كان يدرى هذا الذى ذكرتُ ؛ ولكنَّهُ كانَ يحتفى بظاهرةِ الصِّدقِ الفنىِّ فى شعرِ زُهَيْر ؛

فَالصِّدقُ الفنىُّ عندهُ هو الأصلُ الأوَّلُ والأعظم من بين أُصُولِ النقد الأدبىِّ جميعها ؛ فإذا توافرَ الصدق مع الإجادة ؛ وجبَ تقديم صاحبهما على من يفتقد الصِّدقَ الفنىَّ فى شعرهِ وإن كانَ أَقوى من جهةِ الإبداع الشِّعرىِّ .

....

عاشَ النَّقْدُ الأدبىُّ حتَّى مُنتصف القرنِ الهجرىِّ الأوَّل مرحلةً يُمكن أن تُسمَّى بأَنَّها مرحلة المُراهقة فى النقد الأدبىِّ ؛ فقد تمثَّلَ حتَّى هذا التَّاريخ ؛ فى المُلاحظاتِ اليسيرة ؛ والمقاييس والأُصُول التى تقفُ دائماً خلفَ الأبواب ؛

ولا تقترب من الجوهرِ واللُّبَاب .

نَعَم ؛ كانت هذهِ هى حالُ النقد الأدبىِّ فى النِّصفِ الأوَّل من القرنِ الهجرىِّ الأَوَّل ؛ غير أنَّ الأمر تغيَّر كثيراً فى أواخرِ هذا القرن ؛ فارتقى النَّقْدُ الأَدَبِىُّ بصُورةٍ واضحةٍ ؛ وكثُرَ الخوضُ فيه ؛ وأقبلَ النَّاسُ عليهِ ؛ وأصبحت الموازنة بين الشُّعراء ؛ بمثابةِ الظَّاهرة التى تُمَيِّزُ هذهِ المرحلة من مراحلِ النَّقْدِ الأَدَبِىِّ العَرَبِىِّ ؛ بَل من المُمكنِ لَنَا أن نصفَ هذهِ الفترةَ الزمنيَّةَ بأنَّهَا : بداية النَّقد الأدبىِّ الصَّحيح .

ولهذا الأمر عِدَّةُ أسباب :

ـ الأَوَّل : ازدهارُ الشِّعْرِ فى هذهِ المرحلة ؛ فقد ظهرَ شُعراءٌ جُدُد ؛ عاشُوا فى بيئاتٍ مُختلفةٍ ؛ وكانت لهُم نزعات مُتباينة ؛ فهذا عُمر بنُ أبى ربيعة فى مكَّة ؛ والأحوص وعبدُ اللهِ بنُ قيس الرُّقيات فى المدينة ؛ وجميل ابنُ معمر وذُو الرُّمَّة فى البادية ؛ وجرير والفرزدق فى العراق ؛ والأخطل فى بلادِ الجزيرة ؛ والكُمَيْتُ الأسدىُّ فى الكُوفة ؛ والطِّرِمَّاح بنُ حكيم وعَدِىُّ بنُ الرِّقَاع فى الشَّام .

خَمُدَت جُذْوةُ الشِّعْرِ العربىِّ فى النصف الأوَّل من أوَّلِ قرنٍ هجرىٍّ ؛ فلمَّا قامَ هؤلاء ؛ أضاءَ الشِّعرُ وأنار ؛ وحدثت نهضةٌ عبقريَّةٌ فى فَنِّ القصيد ؛ وانعكسَ هذا ـ بلا ريبٍ ـ على مجالِ النَّقْدِ الأَدَبىِّ .

ـ الثَّانِى : كثرةُ بيئاتِ النَّقد ؛ سَواءٌ فى الحواضِرِ الإسلاميَّة ؛ أو فى البادية .

ـ الثَّالِث : رُجُوعُ العصبيَّةِ العربيَّةِ إلى عهدها الجاهلىِّ ؛ بل كانت أشدَّ وأعتى ؛ فكثُرت الأهاجى والمُناقضَات .

ـ الرَّابع : انتشارُ حياة اللهو والغزل والعشق والهوى ؛ وأصبحَ لكُلِّ شاعرٍ من شُعراءِ هذا الميدانِ منزعهُ واتِّجاهُهُ ؛ وتعدَّدت المشارِبُ والمُيُول .

هـذهِ الأسـباب وغيرها ؛ تضـافرت وهيَّـأت لقيـامِ النقـدِ الأدبـىِّ بصـورةٍ أضـخم وأعظم .

أشادَ النُّقَّاد بأُمُورٍ جديدةٍ ما التفتَ إليها من سبقُوهم .

فمن جهةِ الصِّياغة ؛ أن تكُون أعاريضُ الشعر موسيقيَّة ؛ ذاتُ نَغَمٍ مُؤثِّرٍ .

ومِمَّا عابُوهُ فى الشِّعْرِ وقدحُوا فى شاعريَّةِ صاحبه ؛ أن تكثُر أسماء الأماكن والمواضع .

وهكذا ؛ دَقَّت عباراتُ النَّقد ؛ وخلا من الأحكامِ العامَّةِ الغامضة ؛ وأصبحَ التعليلُ والتفسيرُ هُوَ الدَّليلُ على فهمِ النَّاقدِ وقُوَّةِ حِسِّهِ وذوقهِ ؛ بل لقد جاوزَ النَّقدُ بِنْيَةَ الشِّعْرِ ومعانيه إلى نقدِ الشُّعُورِ والعاطفة .

وهكذا يتبيَّنُ لنا : أنَّ تعدُّد المذاهبِ الأدبيَّةِ واختلاف اتجاهاتها ؛ يُؤدِّى إلى ظاهرةٍ إيجابيَّةٍ ؛ وهىَ تحريك القُدرات النَّقديَّة الكامنة فى عُقُولِ النُّقَّاد .

فبينما نجد من يُعجبُ بمذهبِ عُمر بنِ أبى ربيعة ؛ ويقُول : هذا الذى كانت الشُّعراء تطلُبُهُ فأخطأتهُ ؛ ووقعَ هوَ عليهِ .

نجدُ ناقداً آخر يأخذُ على عُمر أنَّهُ يُشَبِّبُ بالمرأة ثُمَّ يدعها ؛ وينسب بنفسهِ ؛ فهُو يذكُرُ نفسهُ فى غزلهِ أكثر من ذكرهِ للنِّساء !! .